

قوة المحبة وحرّيتها!

"علينا نحن الأقوياء أن نحتمل وهن الضعفاء"

المحبة فنّ، لا بل إنّها سرّ، ومفتاحُ السعادة! ولهذا علينا أن نتعلّم كيف نحبُّ فعلاً. الإنسان كائن ديناميكيّ يحيا على المحبة. إنّهُ طاقة لا بل جاذبيّة، لذلك يتّجه بالطبيعة نحو الآخر. ولهذا نسَمّي توقّف هذه الحركة، أي العزلة: "موتاً". هذا هو ما يميّز الإنسان عن سائر الكائنات الحيوانيّة الأخرى. إنه كائن يريد أن "يبنى علاقات"، ودون ذلك يموت. حياة الإنسان ليست طعامه أو مهنته أو ماله... وإنّما حياته هي علاقاته، وطبيعة هذه العلاقات تحدّد حُسنَ حياته أو سوءها. فلا نقول هذا عنيّ أو قويّ، بل نقول هذا سعيد أو أمين أو محبوب أو...

بالمحبة يشبه الإنسانُ اللهَ خالقَه. كما أنّ الثالث متّحد بالمحبة في ربوبيّة واحدة؛ كذلك الإنسان على صورته ومثاله، هو كائن قادر على بناء علاقات طبيعتها المحبة، أي التقارب مع الآخرين. وللمحبة شرطان أساسيان دونهما تفسدُ أو تموت. إنهما قوّة المحبة وحرّيتها.

بداية، لا بدّ أن نميّز بين المحبة المسيحيّة الروحيّة والمحبة الطبيعيّة الغرائزيّة. المحبة المقصودة ليست العواطف الجيآشية، ولا إشباع الميول البشريّة الطبيعيّة. فقد تحبّ أمّ أولادها محبة قويّة وتتعلّق بهم، ولكنّها تريدهم لها، ومن هكذا محبة هو مطهر دموع آلام في زفاف ابنتها. محبة كهذه هي محبة طبيعيّة فيها مقايضة بالمشاعر. فنحن هنا نُحبّ بشرط باطنيّ أن نُحبّ أيضاً، نعطي لناخذ، وتتفاوت المعادلة بين العطاء والأخذ.

المحبة التي نعيها هي تلك التي يصفها بولس الرسول هنا واعظاً إيّانا: "ولا نرضي أنفسنا، بل فليرض كلُّ واحدٍ قريبه للخير لأجل البنين". المحبة لا تبرهن من المشاعر وإنّما تُقاس بالعطاء! المحبة ليست أن نشبع مشاعرنا وإنّما أن نُسعِدَ الآخر. المحبة ترى الآخر وتنسى الذات. بالمحبة يشغلنا الآخر، بالمحبة نفكّر ليس بما نحتاجه نحن لنرضي ذواتنا وإنّما نفكر بالآخر ونحاول أن نرضيه؛ طبعاً، وكما يقول الرسول "في الخير للبنين". فعندما يريد الآخر أمراً شريراً نحن لا نحابي الوجود، بل نعظّ وننّبّه، أو على

الأقلّ نصليّ. نحبّ يعني: أن نفكر بالآخر قبل أن نفكر بأنفسنا، أن نشبع الآخر قبل إشباع ذاتنا، وهكذا دواليك على كل الأصدّة الماديّة والروحيّة.

الشرطان الأساسيّان، إذن، لهذه المحبّة هما قوتها وحرّيتها؛ إنها على مثال المحبّة التي في الثالوث الأقدس. وهذان الشرطان يُدعيان -في الثالوث، αδιαιρέτως, ασυγχύτως, أي المحبّة لا تُفصل ولا تختلط. إنها محبّة تتحد الكيانات باتّحاد لا يمكن أن تنفصل فيه ولا يلغي صفات كلّ منها. فهذا الاتّحاد قويّ جدّاً، بقوة المحبّة ولا يمكن لأيّ شيء أن يعلو عليه. وفي هذا الاتّحاد حرّية للشخص لا يسلبه إياها حتّى حبه هذا.

قوّة المحبّة الحقيقيّة والكاملة تغلب كلّ أمر. المحبّة تغلب الكسل، والمحبّة تغلب الخوف. أحبّ، يعني أن أعطي. وعندما يحاول الإنسان أن يحبّ هكذا يقاومه الكسل وربّما التعب. يفكّر الإنسان طبيعيّاً كيف يرتاح وكيف يُسعد وكيف يفرح وكيف يغنى... هكذا، عندما يريد أن يحبّ ويبدأ يفكّر كيف سيربح آخر أو يسعده أو يفرحه أو يساعده، عندها عليه أن يتغلّب على الكسل والأنانيّة. وهذا يحتاج لمجهود ليس بقليل. لكن المحبّة الحقيقيّة قويّة جدّاً وتغلب الكسل. وإذا تغلب من يحبّ على كسله يبقى عليه أن يتغلّب بعد ذلك على خوفه. من يعطي ويضحى يخاف في البداية أن تكون تجارته خاسرة بمردود قليل أو دون مردود على الإطلاق. فمن الواضح له أنّه يعطي الآن ولكن متى وكيف سيستردّ، ومع ربي أيضاً؟ الأسهل أن يحبّ الإنسان ذاته مباشرة دون هذه المقايضة الخطرة، وربّما الخاسرة. على خوف كهذا يجب أن نتغلّب إذا أردنا أن نحبّ.

رهيبه هي قوّة المحبّة، التي تجعلنا نغلب كسلنا لنصير في خدمة الأخ، ونغلب خوفنا الأنانيّ لنبدأ دون وجل في العطاء. قوّة المحبّة تخدم حاجات الآخر دون تردّد، قوّة المحبّة تتجاوز حتى خطيئة الآخر وليس فقط تخدم أوهانه. لا شيء يقوى على المحبّة وعلى رباط الوحدة الذي تخلقه بين المُحبّ والآخرين.

من أين لنا بقوة محبة كهذه؟ المحبّة المسيحيّة ليست كالغرائزيّة التي تقوم على مقايضة العواطف، وتتبدّل وتقلب إذا أساء الطرف الآخر المقايضة! المحبّة المسيحيّة قرار بأن نعطي حبّاً وخدمة وتضحيات دون أن ننتظر. "فإن كنتم تحبون من يحبونكم أيّ أجر لكم؟" المحبّة المسيحيّة تأتي عن وعي كبير وقرار مسؤول.

أحبّوا ليس من يحبّكم، ولا أيضاً من ينساكم، بل "أحبّوا أعداءكم"، أوصانا يسوع: محبة كهذه تحتاج لقوة لا نأخذها من البشر! قوة كهذه لا يمكننا أن نستمدّها إلا من الله الذي يعطيها والنعمة التي تحفظها. لذلك من لا يصلي ويطالع ويتمسك بالمصدر الإلهي كل لحظة، لا يمكنه أن يحب لأنه لن يقوى! من له مثل هذه القوة على محبة الأعداء أيضاً، إذا لم يكن الحب الإلهي قد غمره وملأه نعمة وثباتاً؟ لا ينتزه عن المقايضة المشاعرية إلا من ذاق حب الله الفائق الطبيعة له؛ فلا يعود، بعد أن نعم بهذا الحب يشترط في حبه للناس مبادلتهم بحب بشري، بل يكفي أن يحب كعالمه. لا يحب حقاً إلا الإنسان الروحي الذي ملأت قلبه تعزيات الروح وسلام الله، فلا يعود يطمع بتعزيات البشر. لذلك لكي نحبّ علينا قبلها أن نصلي ونجاهد ونسجد لنحافظ على نعمة الله التي تقوينا في كل شيء.

حرية المحبة، هي شرطها الثاني لتكون محبة حقيقية طاهرة. وهذه الحرية هي ما يميّزها عن الحب الغرائزي. المحبة الغرائزية لا تعطي للمحب حريته! إنها محبة إجبارية، لأنها بالأصل حب للذات عن طريق الآخر. في محبة كهذه طبيعية يسود التعلق ويصير المحب عبداً لحبه وليس سيّداً. إنها محبة تختلف عن تلك الروحية أنها ليست بالمطلق حرة وواعية، لأنها من الإنسان وليست كلّها من الله. إنها محبة تقيد ولا تحرر، لأنها محبة تقايز وتشتترط. ويغلب عندها الشعور والقول "أنا أحب كثيراً أما الآخر فلا يحبني"! هذه لغة المحبة الطبيعية وهي مختلفة عن المحبة الحقيقية الصافية. إن المحبة الطبيعية هي علاقة بشرية بين الإنسان والإنسان ومهما طهرت تبقى متاجرة وتطلب المبادلة، ولا تعطي سعادة دائمة، بل سعادتها لذة أنانية في لحظات. لذلك أعلن يسوع جهاراً أن محبة الأعداء هي التي تكشف حقيقة صفاء محبتنا وطهارتها!

ومن أين لنا هذه الحرية الخفية؟ إن ممارسة أعمال المحبة مع الناس هي ممارسة سهلة العطب. لأن الناس جميعهم وأنا ميّالون إلى المقايضات والمشاركة ونستسهل الحب الطبيعي. لكن ممارسة المحبة أولاً مع الله هي الممارسة الطاهرة الأكيدة. لهذا لا يمكن لمن لم يتدرّب على الحب مع الله أن ينجح في الحب مع البشر. الله هو المحب في حرية الحب المطلقة، ومحبّتنا له هي مدرّبتنا إلى تطهير حبنا فيها. لهذا كنيسةنا الأرثوذكسية تشترط قبل الخدمة الاجتماعية ومحبة الفقراء والخدمة والبشارة وكل أعمال وفضائل المحبة، وعلى أهميتها، تشترط أولاً حبنا لله.

إننا نتأرجح في الحب بين الروح والغريزة! نحب حيناً في عطاء وحيناً في تجارة! إن محبتنا كالزرع الذي دخل فيه زؤان بين القمح. ونعترف بتواضع أن هذا أمر منتظر، ما دمنا بعد لم نقدس كل شيء فينا! ولكن هذا الواقع لا يدفعنا إلى القنوط أو القبول برياء المحبة أحياناً، بل يدفعنا إلى بذل جهد آخر خاص لتنقية الزؤان من قمح المحبة الصافي.

هناك، في الصلاة تنقّي المحبة، عندما نحب الله تتعفّف أعيننا في حبّ الناس. محبتنا لله تحرّنا وتقوّينا في ممارسة المحبة.

الصلاة هي المخدع الذي يناولنا فيها الله قوّة للحبّ وطهارة فيه وحرية، فإذا أردنا أن يكون لنا قوّة محبة لا يغلّبها شيء علينا أن نصلي صلاةً دائمة لا يعكرها أي شيء. المصلي بلا انقطاع محبّ بلا انقطاع. حينها، كلّ مسؤوليته ناتجة عن المحبة، أي همومنا الشخصية وهمومنا من أجل الأخوة وأوهان الآخرين وحاجاتهم، كلّها تصير حطباً لنار الصلاة وليس عثرة لها. هكذا المحبّ للصلاة يحبّ الجميع إلى النهاية وكلّ حين، ويقدر على ذلك وهو حرّ. لذلك لنصلّ أولاً، ولنصلّ لمن ولما نحبّه، حينها نطهر حبنا له. قوّة المحبة وحرّيتها تأتيان من حبنا لله، وعملياً من ممارسة الصلاة والتوبة والسجّات. نحن نكمل في المحبة. نولد طفلاً يحبّ بالغريزة وننمو في تعلّم الحبّ بمقدار ما نتمرّن عليه أولاً مع الله في الجهاد الروحيّ.

محبة قويّة وحرّة هي محبة جريئة جدّاً! محبة كهذه لا تدين الآخر من أوهانه لأنها تشعر لا بالتعالي وإنما بالمسؤولية. من يحب لا يحاسب بل يسند. لهذا من هو في ضعف أو هوان هو أكثر من يستقطب حبنا. إن محبتنا للأقوياء ليست محبة قويّة، وربما ليست حرّة. لكن محبة الضعفاء والفقراء وأصحاب الحاجات الخاصّة هي محبة كاملة وحرّة فعلاً. هكذا نمتحن وننقّي محبتنا، عندما نتذكّر كلمات بولس الرسول: "يا إخوة علينا نحن الأقوياء أن نحتمل وهن الضعفاء"، آمين.